صوفية الحب العذري عند صلاح عبد الصبور

جلول قطاف: طالب دكتوراه

د. بوشيبة الطيب: الرتبة : استاذ محاضر أ

جامعة : احمد بن بلة وهران 1

ملخص :

تهدف هذه الورقة البحثية الى الكشف عن الاثر الذي احدثته معرفة الشاعر صلاح عبدالصبور بالتراث الصوفي ، واهتماماته الكبيرة بالنزعة الانسانية التي هي المحرك الاساسي لذاتيته التي ينتج عنها المحبة بين بني البشر ، وليس غريبـــــا أن يعبر شاعرنا المعـــــاصر " صلاح عبد الصبور " عـــــن المحبة الصوفية ، ويربط بينه وبين تجربته الشعرية ليتجاوز شاعرنا خطابه الظاهري المعلن الى خطاب صوفي خفي ، والذي سعى من خلالها الى تجسيد معنى الحب وبيان معناه الاسمى التي تهدف به الروح الى المعاني المثالية الالهية.

الكلمات المفتاحية: التصوف ، الحب ، صلاح عبد الصبور ، الشعر.

Abstract:

This paper is based on the discovery of the impact of the knowledge of the poet Salah Abdel Sabour Sufi heritage, and his great interest in humanism, which is the main engine of his self that produces love among human beings. It is not surprising that our contemporary poet Salah Abdel Sabour expresses Sufi love, and connects him to his poetic experience to go beyond our poet's apparent public speech to a Sufi speech hidden, through which he sought to embody the meaning of love and to express the supreme meaning which the soul aims at the divine ideal meanings.

Keywords: Sufism ،Love Salah، abdel sabour، poem

مفهوم الحُب وأصل اشتقاقه:

اهتم الإنسان منذ كان بالحُب. والحُبُّ عاطفة قوية أو ربط متين بين إنسان وإنسان. وللحب مظاهر شتى تختلف باختلاف الأفراد. وقد عبّر الشاعر العربي عن هذا الحب بمظاهره الشتى، فكان حب الشاعر لولده، وحب الشاعر لأخيه، وحُب الشاعر لآبائه، وحُب

الشاعر لنفسه، وحُبّ الشاعر للمرأة، وحُبّ الشاعر لله تعالى ولرسله وملائكته الكرام...إلخ. وقد هلّت الفلسفة في الفكر العربي، وظهر تجاوبها في الشعر العربي، فأخذ الشاعر يُغذي تأملاته، ويرفعها عن المادة، متأثراً بفلسفة الحب الأفلاطوني وكان من قبل، خطا خطوة أو أكثر عند الشعراء العذريين الذين تصوّفوا لحب واحد، وفنوا في سبيله، فلقيت هذه الفلسفة اليونانية في الفكر العربي تربة خصبة وارتقاء إلى حب إلهي مطلق. ونرى أن كلا الحبين: الحُب الأفلاطوني والحب الصوفي يقصدان غاية واحدة وهي الوصول إلى المعرفة الكبرى. وللصوفيين سفرٌ روحيٌ طويلٌ، مزودٌ بالتوبة والمجاهدة، والخلوة، والتقوى والورع والزّهد، والصمت والحزن والجوع والصبر والاستقامة، والصدق والإخلاص والحرية وغيرها من الأحوال والمقامات، فالحب عند الصوفيين إعراض عن الدنيا، وإطراح للجسد، ثم إطلاق للروح في سفرها الطويل الشّاق، حتى تبلغ بُغيتها ومرادها، فترى الله وتفنى فيه فناءً مفارقاً و الصوفيّ يحن للوصول إلى الله، ورؤيته، حتى إذا غمره النور انتشى، وإذا علم، اعتراته غبطة كبرى، وإذا وصل اتحد بالله وفني فيه،وأصبح هو إياه، فهؤلاء المحبّون أحباء بأرواحهم، خالدون

اختلف علماء اللغة في أصل كلمة "حب" و"محبة"، فمنهم من قال بأنّ المحبة مشتقة من قولهم: أحبّ البعير إذا برك فلم يقدر على القيام، فكأنّ المحب قد لزم قلبه محبوبه فلم يرم عنه انتقالا ولم يبغ عنه حولا، فالمحب لا يبرح بقلبه عن ذكر المحبوب، بعد أن وقع في المحبة ولا يقدر على الانفكاك.

وقيل اسم المحبّة مشتق من حبّة القلب، وهو موضع ينشأ فيه الحب، فأخذ اسمه من محلّه وهو سويداء القلب، ويقال ثمرته، فسميّت المحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب، وقيل هو مشتق من الحبّة، وهو بزر النبات، لأن البزور لباب النبات والحب لباب الحياة

والحِب (بكسر الحاء) بزور الرياحين، والواحد حبة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوم: يخرجون من النار فينبتون كما تنبت الحِبّة في حميل السيل

قيل: إنّ المحبةَ أصلها من: الصفاء، ذلك أن العرب تقول في صفاء بياض الأسنان ونضارتها: (حبَبتُ الأسنان)، وقيل: إنها مأخوذة من الحُبَاب: وهو الذي يعلو الماء عند المطر الشديد. فكأنَّ غليان القلب وثوراته عند الاضطرام والاهتياج إلى لقاء المحبوب يُشبه ذلك، وقيل: مشتقة من الثبات والالتزام، ومنه: أحَبَّ البعير، إذا برك فلم يَعُمْ؛ لأن المحبّ لزم قلبه محبوبه، وقيل: النقيض، أي مأخوذة من القلق والاضطراب، ومنه سُمّي، (القرط)؛ حُباً لقلقه في الأذن

وقيل: بل هي مأخوذة من الحُبِّ جمع حُبّة، وهي لُبابٌ وأصله؛ لأن القلب أصل كيان الإنسان ولُبّه، ومستودع الحُبّ ومكمنه، وقيل: في أصل الاشتقاق كثير غير هذا، ولكننا نعزف عن الإطالة والإسهاب. ولتعريف الماهية نقول إنّ الحُبَّ هو: الميّل الدائم بالقلب الهائم، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب، وموافقة الحبيب حضوراً وغياباً، وإيثار ما يريده المحبوب على ما عداه، والطواعية الكاملة، والذكر الدائم وعدم السلوان

وقيل هو مشتق من الحُب الذي هو إناء واسع يوضع فيه الشيء فيمتلئ به، بحيث لا يسع غيره، كذلك قلب المحب ليس فيه سعة لغير محبوبه.

وقيل أصله من الحبِّ وهو القرط، لأنّ القرط يهتز ويميل ويضطرب في أذن المرأة المتحليّة به، وكذلك المحب قلق يخشى على حبّه وحبيبته فلا يثبت ولا يستقر

وقيل أصل المحبة الصفاء لأنّ العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حَبَب الأسنان، وسميت المحبّة بذلك لما يستلزم قلب المحب من الصفاء..فكأن محبة المحب هي صفاء وقته، وضياء نفسيته ونقاء مودته

وقيل اسم الحب مأخوذ من حُباب الماء، وهو معظمه، فيكون على هذا اسما لأعظم ما في القلب، وقيل مشتق من الحُباب وهي الفقاقيع التي تعلو الماء عند صبّ ماء آخر عليه، فيكون على هذا اسما لغليان القلب وفورانه عند الشوق والتطلّع إلى لقاء المحبوب.

وقيل هو مشتق من الحُبِّ، وهو الخشبات الأربع التي يستقر عليها ما يوضع عليها من جرّة أو غيرها، فسمي الحب بذلك لأنّ المحب يتحمل لأجل محبوبه كما تتحمل الخشبات ثقل ما يوضع عليها

صلاح عبد الصبور والتصوف :

ارتبط التصوف في سيرورته التاريخية بالدين والفلسفة وتداخل معهما وامتزج بهما فقد يؤول الصوفي تجربته من منظور ديني وينزع منزعا فلسفيا تختلط فيه روحانيته بالنزعة الميتافيزيقية الى عالم الطهر والنقاء يستعيد فيه الانسان عالمه الالهي ، ويذهب صلاح عبد الصبور الى الحد الذي يوجد فيه بين التجربتين فهما كما يرى " تنبعان من منبع واحد وتلتقيان عند غاية واحدة هي العودة بالكون الى صفاته وانسجامه "[1]

فالشاعر و الصوفي لكل منهما معناه وقلقه وبحثه المتواصل عن العدل والحقيقة وترقبه للحظة الالهام والتجلي ، ولعل التقاء عبد الصبور مع الصوفي للحياة والكون هي التي جعلته يرى_في التراث الروحي الصوفي الذي ينتصر للقلب على العقل ، وللخيال عن الواقع وسيلة لمواجهة قضايا الكون وطغيان الحياة القاسية ، فأنسحب من الواقع وتجاوزه بقوة روحه الافق الانساني وتسعت رؤيته وبصيرته بعيدا عن مجتمعه و أنانيته ، فقد كانت ثقافته الصوفية سمة بارزة_في أشعاره، واستمد منها شخصيات وأصوات يعبر من خلالها عن أبعاد من تجربته بشتى جوانبها الفكرية والروحية ،وقرأ عبد الصبور التراث الصوفي وعايشه واستخدم الكثير من المصطلحات كالعشق والجد ،والخروج ، والنار ... و استمد منها النماذج البشرية ذات الايحاءات الصوفية "مذكرات الصوفي ستر الحافي " وقصيدة " رسالة الى صديقة" وقصيدة "مأساة الحلاج"

قرأ صلاح قصة بشر الحافي بعد أن مال الى التصوف فيشير كما يذكر الشاعر : " مشى يوما_في السوق فأنزعه الناس فخلع نعليه و ضعهما تحت إبطيه ، وانطلق يجري_في الرمضاء ، فلم يدركه أحد وكان ذلك مئة سبع وعرين ومائتين "[2]
فقصيدة مذكرات صوفي لبشير الحافي تبدو وكأنها مقدمة لظهور العلاج ومذهب الخير المطلق فالصوفية_في هذه الشخصية تصلح لتفسيرات الوثبات الوجدانية .
يقول مخاطبا الشبلي :
الحلاج : هبنا جانبنا الدنيا
ما نصنع عندئذ بالبشر ؟!
الشبلي : الشر
ماذا تعني بالشر ؟
الحلاج : فقر الفقراء
جوع الجوعي ... [3]
استسقى صلاح مسرحيته من التاريخ وأعد صياغة الاحداث بتشكيل جديد يتفق ومجابهة الشاعر لها فكان صلاح هو القناع أو البديل الموضوعي للشاعر_في معاناته ولعله تعبير عن أزمة صلاح عبد الصبور ومأساته الخاصة ، ولذا يكون الحلاج معبرا عن صوته الشعري وموقفه الذاتي .

أما في قصيدته "رسالة إلى صديقة" والّتي يلتقي فيها بالشّيخ محي الدّين الّذي يرمز إلى معنى الارتقاء الرّوحي إلى درجة التّسامي يقول:

بالأمس في نومي رأيت الشّيخ محي الدّين
مجذوب حارتي العجوز
كان في حياته يعاين الاله
تصوري، ويحتلي سناه
وقال لي: ونسهر المساء
مسافرين في حديقة الصّفاء
يكون ما يكون من مجالس السحر [4]

وهكذا بدأ الحب الصوفي الّذي يعيش في ذات الشّاعر يتحول إلى فيض من الدّاخل ليتجه نحو الآخرين في صفاء وعفوية وعذوبة، ولعلّ شخصية "الحلاّج" كانت أكثر شخصيات التراث الصوفي حظا من اهتمام الشّعراء وعنايتهم و"الحلاّج" هو شهيد الصوفية الّذي صلب ببغداد" [5] فقد تناوله الشّعراء في عدد من قصائدهم أشهرها الّتي كتبها عبد الوهاب البيّاتي بعنوان "عذاب الحلاّج" و"مأساة الحلاّج" وهي ما يسمى بالمسرح الشعري.

فقد كان عذاب الحلاّج طرحا لعذاب المفكرين في معظم المجتمعات الحديثة، وحيرتهم بين السّيف والكلمة، يقول صلاح عبد الصبور معلّقا على هذه المسرحية "أمّا القضية الّتي نطرحها فقد كانت خلاصي الشّخصي، فقد كنت أعاني حيرة مدمرة إزاء كثير من ظواهر عصرنا ...وكنت أسأل نفسي السؤال الّذي سأله الحلاّج لنفسه ماذا أفعل؟ وكانت إجابة الحلاّج هي أن يتكلم ويموت. فليس عندي الحلاّج صوفيا فحسب، ولكنه شاعر أيضا والتّجربة الصّوفية والفنّية تنبعان من منبع واحد...وهي العودة بالكون إلى صفائه"[6] قد يجتمع الشاعر والصوفي في الشخص الواحد، فيغدو من المفكرين الذين آلوا على أنفسهم خدمة قضيتهم ولو كان الموت بانتظارهم

وإذا جازا لنا أن نلتمس بعض اصطلاحات الصوفية لوجدنا طائفة منها في شعر صلاح عبد الصبور ، وفي احاديثه عن تجربته الشعرية من مثل هذه المصطلحات التي نذكرها ونورد دلالتها عند الصوفية :

الوارد :وهو ما يرد على القلب من خواطر محمودة بلا تعمل

التجلي : وهو ما ينكشف للقلب أخوار الغيوب

الحال : هو ما يرد على القلب بلا تعمد ولا اجتلاب ، وقيل تغير الاوصاف .
الرمز : وهو معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهه .
الغشية : هو غيبة القلب بما يرد عليه.
الوجد : هو مصادفة القلوب لصفاء ذكر ما كان عنها مفقودا.
.**العارض** : هو ما يعارض القلوب والاسرار من النفس والهوى

الحب الصوفي :

ما الحب ؟ سؤال يجيب عنه الصوفي بأنه لا يحد ، لكنه يدرك بالذوق .

إنّ المحبة والحب قد يترادفان وقـــــد يتخالفان، فالحب يرد غالبا بمعنى العاطفة الشديدة من رجل لامرأة أو بالعكـــس، والأوّل أغلب، والمحبة للعاطفة العادية، يقال: بين فلان وفلانة حب فيفهم منـــــه أنهما مرتبطان بعاطفة شديدة هي التي تجمع بين الجنسين، ويقال بين الأخ وأخيـــه محبة فيفهم منه أن أحدهما يحب الآخـــــر حـــبا أخـــويا فبين الحب والمحبة سجال، ومـــــن ثمرات الأول تنجلي مصطلحات أخرى تحمل مفاهيم تراتبية في علاقاتها واتصالـــها المعرفي، منها العشق، الهوى، الود،.

إنّ ألطف ما في الحب أن تجـــــد عشقا مفرطا وهوى وشوقا مقلقا وغراما ونحولا وامتناع نوم ولذة بطعـــام، ولا يدري بمن ولا يتعين لك محبوب، ثم إما يبدو لك تجلّ في كشف فيتعلـق ذلك الحب به، أو ترى شخصا فيتعلق ذلك الوجد الذي تجده به عند رؤيته فتعلـــــم أن ذلك كان محبوبك وأنت لا تشعر، وهذا من أخفى دقائق استشراف النفوس علـى الأشياء من خلف حجاب الغيب فتجهل حالها ولا تدري بمن هامت، ولا فيمن هامت ولا ما هيمها

واذا كان الحب لا يحد من حيث ذاته ، فإنه يحد من حيث نتائجه ، وآثاره ، ولوازمه . ولكي نعرف الحب يجب أن نذوقه .وهذا الذوق لا يروى فالحب شرب بلا ري ، ومن قال رويت منه ما عرفه فكلما شرب المحب من المحبوب ازداد عطشا إليه.

والغاية من الحب ، في مرتبته الروحانية ، هي التشبه بالمحبوب ، مع القيام بحقه ، ومعرفة قدره . واذا كان الطبيعي خاضعا للحد والمقدار والشكل ، فإن الحب الروحاني ، على العكس ، خارج عن الحد ن وعن المقدار والشكل . ولذا ، حين يتمكن هذا الحب من الحبيبين ، لا يشكو أي منهما فراق الاخر ، لأنهما ليسا من عالم الاجسام . والمعاني

هنا لا تتقيد ولا تتحيز وفي هذا الحب ، يحب المحبوب محبوبه لنفسه ، وله هو، فهو حب جامع ، على العكس من الحب الطبيعي حيث المحب لا يحب إلا لأجل نفسه هو.

ويقول ابن العربي إن مقام المحبة أربعة ألقاب : [7]

أ – الهوى :وهو سقوط الحب في قلب المحب .من هوى : اذا سقط. وهو ذا سلطان لأنه من العالم العلوي . انه استفراغ الارادة في المحبوب.

ولولا الهوى ما هوى من هوى ، كما يقول ابن العربي ، إذا به يختبر الانسان فينزل أو يعلو وينجو أو يشقى ؛

ب ــ الحب :وهو خلوص الهوى الى القلب ، وصفاؤه من كل كدر وسلطان هذا الحب اعظم من ان يزيله أي شيء ؛

جـ ــ العشق :وهو افراط المحبة . لذلك يوقد نار الشوق والوجد . أنه التفاف الحب على المحب ، حتى يخالط جميع أجزائه . وهو مشتق من العَشَقة ، أي نبتة اللبلاب التي تلتف حول ما تنمو قربه ، وفي العشق يكون العاشق تحت سلطان المعشوق .

وفي العشق نعشق الانسان أو الله : يقابل العاشق بذاته كلها معشوقة (الانسان أو الله) لأنه يماثله ، فلا تبقى فيه فضلة ليصحو ، فيهيم ظاهره في ظاهره ، وباطنه في باطنه هكذا لا يسمى الحب عشقا ، إلا اذا ظهر الحب في حبة القلب وعم الانسان بجملته وأعماه عن كل شيء سوى محبوبه ، وسرت تلك الحقيقة في جميع أجزاء بدنه ،وقواه وروحه. وجرت فيه مجرى الدم في عروقه ، وغمرت جميع مفاصله ، وعانقت جميع مفاصله ،وعانقت جميع أجزائه ، جسما وروحا ، ولم يبقى فيه متسع لغيره ، وصار نطقه به ، وسماعه منه ونظره في كل شيء إليه ، ورآه في كل صورة ؛

د – الورد ، وهو ثبات الهوى او الحب او العشق ، في ما يسوء وما يسر ن على السواء.

إنّ رصد مفهوم الحبّ في عرف واصطلاح الصوفيّة يستدعي توضيحه كمقام يبلغه المريد السالك بركوب الأهوال واتّخاذ جملة من الرياضات الروحية والمجاهدات النفسية، والمكابدات الجسديّة المضنية، فهو ليس حالا عارضا بقدر ما هو مقام راسخ ومنزل رفيع، يتوصّل إليه بارتقاء أسبابه، من هنا لابد من تعهّده لينمو ويستوي على سوقه " فالحب هو أسمى وأرقى العلاقات الإنسانيّة في الوجود، يتأتى نتيجة العلاقات الطيّبة بين المحبّ ومحبوبه في أوّل الطريق، وتأتي هذه العلاقات الإنسانية السامية نتيجة صفاء القلب ونقائه مما فيه من شوائب مختلفة الألوان، وتظل هذه العلاقات تعلو وتظهر وتتشابك لتؤدي إلى تطويع إرادة المحب تحت تصرّف محبوبه، وفي نهاية المطاف يمنح المحبّ أغلى ما لديه وأشرف ما يملكه لمحبوبه وهو قلبه

وقد تكلم الصوفية كثيرا في الحب والعشق وكل يعبر عم مقاله عن حاله . وقد تغنّى الشعراء الصوفيون جميعاً بالحب، حتى أصبح عندهم مذهباً وديناً بعد أن كان شكلاً وجسداً وسماوّياً مقدّساً بعد أن كان أرضياً وتبذلاً، وأزلياً يدوم بعد أن كان متغيراً لا يدوم.فمن جوهر الحب: الإخلاص والصدق والحقيقة، ومن وحيه الاعتصام بالمثل العُليا والخلاق الساميّة. وقد أصبح الحُب السبيل الوحيد لرّقي الروح البشريّة، فهو للنبي والرسول، والمعلّم والمهذب وهو الدين الوحيد الذي تقرّب الإنسان من خالقه مباشرة، دون وسيط؛ ليشاركه في المعرفة الكبرى، حتى إذا اتحد به علم حقيقة الوجود وجوهر الكائنات، فأمدها روحاً من روحه ومحبة من قلبه. وما أعظم من شعور الإنسان بتلك الألوهية؟ وما أعظم من شعور الإنسان بقدرته الإلهية الجبّارة؟ وما أعظم من شعور الإنسان بثقته وقوّته عندما يُشارك الله في تسيير الأكوان، ويُصبح صنوّه وكفوه، فيمنح الكائنات الأرواح؟ حقاً، إنّ الصوفية قد دانت بدين الحُب، وبدين الإنسانية جمعاء. فرفعت من شأن الإنسان، وقدره وقيمته الوجوديّة وقد كانت السيدة رابعة العدوية "185 ه" أول من كتب شعرا في الحب الالهي ولها الفضل في اشاعة لفظ الحب عند من جاءوا بعدها من الصوفية . وهي تعبر عن ذلك بعد تجربته ومعاناة مباشرة في أبياتها المشهورة التي تقول فيها :

أحبك حبين حب الهوى *** وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى *** فشغلني بذكرك عمن سواكا
واما الذي أنت أهل له *** فكشفك لي الحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي *** ولكن لك الحمد في ذا و ذاكا [8]

فالحب الصوفي يخالف ما يسبق الى الذهن عادة من هذه الكلمة ، اذ تمثل الذات الالهية الطرف الاخر في هذه العلاقة وينطلق ابن العربي في حبه الالهي وغزله الصوفي من القول بجمال العالم ، فالعالم جميل وجماله يأتي من كونه على صورة الحق ، فهو يرى أن الانسان على صورة العالم ، والعالم على صورة الحق فالإنسان جمال العالم والحق والانسان هو مظهر من مظاهر الوحدة الوجودية ولهذا كان الحب في فلسفة بن العربي الصوفية دينا كما قال في أبياته الشهيرة

لقد صار قلبي قابلا كل صورة *** فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبين لأوثان وكعبة طائف ***وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أني توجهت *** ركائبه فالحب ديني وإيماني [9]

ولهذا كان الحب الالهي والانساني شيئا واحدا ، فالشاعر هنا مستغرق في حبه وعشقه الى حد الفناء وإذا كان الحب دين الشاعر ، فعلى المحب أن يفني في محبوبه كما فنى المحبوب جميعا من قبله إنّ المحبّ في ارتقائه مدارج السالكين يختبر أهوالا كثيرة ويعاين أحوالا عديدة، فيعتلي من خلالها مقامات تدفعه للتفوّه بشطحات قد ينكرها من اتّصل بالظاهر وخفي عنه الباطن، وقد يستعذبها من اغترف من بحرها وذاق من أسرارها من هنا كانت المرأة إشارة تغنّى بها الصوفيون، فالتمسوها في أشعارهم وآدابهم تشوّفا وتشوّقا للحضرة الإلهيّة، فاستعاضوا بها عن وزر العبارة لما تحققوا من استحالة المشاركة الوجدانيّة بين البشر جميعهم في تذوّق كنه المحبّة الإلهية، لتفاوت الأقدار والمقامات ووعيهم باستبداد الأغيار والاعتراضات ويرى بعض الصوفيّة: أنّ المحبة بذل المجهود وترك الاعتراض على المحبوب، وسكر لا يصحو صاحبه إلاّ بمشاهدة محبوبه"، ويقول الجنيد في وصف المحب:

" عبد ذاهل عن نفسه، متصل بذكر ربّه، قائم بآراء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفا شربه من كأس ودّه، وكشف له الجبار من أستار غيبته.

تجليات الحب العذري عند صلاح عبد الصبور :

الحب الإنساني :

كانت بداية الشاعر مع الحب تتمثل بحبه للكون – كأي شاب مقبل على الحياة – يعيش الحب ويتمناه . يقول صلاح عبد الصبور : " إن الله لا يعذبنا بالحياة ولكنه يعطينا ما نستحقه لقد أسلمنا الكون بريئا مادة عمياء ، نحن عقلها ، فلماذا صنعنا به على مدى عشرات القرون وقد كان باستطاعتنا أن نجعله جنة وارفة ظلال العدالة والخير والمحبة ، لقد لوثناه بالفقر والاستعباد والطغيان".[10]

ويؤكد الشاعر في قصيدته "أغلى من العيون "أن ما يربط القلوب هي السكينة والهدوء والامل و العشق .

الحب يا حبيبي أغلى من العيون
صونيه في عينيك واحفظيه
الحب يا حبيبي مليكنا الحنون

كوني له مطيعة سميعة
الحب يا حبيبي هدية الحياة لي ولك [11]
في هذه القصيدة تعتبر المحبوبة رمز الحياة ومصدر السكينة والافتخار وإدامة الحياة والنشاط ،والمحبوبة عنده ملجأ وبرجا عصيما يحدد فيه الحب مصيرا مشرقا وبنظر الشاعر فالقدر مدين للعشق الحقيقي للرجل اتجاه المرأة التي تجد السكينة والهدوء الحقيقي بوجودها معه .

ويمكن القول إن الشاعر في هذه البداية لا يشعر بعاطفة الحب بشكل خاص ، وإنما يشعر به بشكل عام ، تحلم نفسه بالحب ، وتتغنى بمفرداته ، لذا فالشاعر يعيش مرحلة الحلم بالحب في ديوانه الاول ، ويوجه قصائده الى الحبيبة الامنية التي يحلم بها ، بالرغم من وجود بعض المنغصات التي تفسد عليه حبه ، كالطارق المجهول الذي أفسد نزهة الجبل ، والاجدل المنهوم الذي هدم الجميل ، ويتخطى الشاعر قوى الشر ويحلم بالحب ، يقول :

ولا تشغلي ...إننا ذاهبان
إلى القرية لم يطأها البشر
لنحيا على بقلها ، لا الحياة
تضن علينا ولا النبع جف [12]

تتصدع النفس جراءه الى الله ليخلصها من العذاب . ولا يمكننا إغفال أن شاعرنا صاحب مبدأ صوفي يتمثل به في حياته.

يا ربنا العظيم ، يا معذبي
يا ناسج الاحلام في العيون
يا زارع اليقين والظنون
يا مرسل الآلام والافراح والشجون
اخترت لي، لشد ما أوجعتني
ألم أخلص بعد ؟
أم ترى نسيتني ؟
الويل لي ، نسيتني ...نسيتني [13].

ولأن الحب أصبح قيمة عظيمة بذات الشاعر ، فإن فقدانه أو الفشل في الحصول عليه يتسبب في إيذاء الشاعر وضياع الثقة في واقعه. وهذا ما سينبئنا به ديوانه "أحلام

الفارس" القديم في تحول دلالة الحب عند الشاعر بعد فشل زواجه الذي كان يبني عليه كل آماله.

ويصل الشاعر الى نشوة الحب والفرح في ديوانه "أقول لكم " ،فقد ملك أعظم الأشياء التي يتمناها في ذاته " الحـــــــــب والشعر " ، يقول :

وفدا في ليلة صيف
ولجأ من باب القلب كما يلج الضيف
كانا بسامين
قالا للقلب سعت مساء يا قلب
وتقدم هذا المحبوب ...الحب
ورمى في قلبي فيروزة
خضراء بلون الآمال
وأشار...وقال

قم يا شادي ! غرد ... بارك للحب
كرس هذا الاسم العذب
وتقدم هذا المحبوب ... الشعر
وبإصبعه فك الختم وأفشى السر
أنشأت أغرد في صوت بالدمعة رطب
لليل ... وللفجر الغافي بالباب
ولأصحابي.
للعينين الخضراوين
للملكين
خرجا من داري معتنقين سعيدين[14]

هذه القصيدة من القصائد القليلة التي تخلو من التشاؤم والحزن فمفرداتها جميعا تدل على الحب والسعادة والفرح، فالشاعر يملك الحب الذي انتهى بالزواج ، ويملك الشعر الذي سيبقيه ذاكرة حية يحمل كلمته ويوصلها الى الآخرين. ويكون الواقع المر أو الأيام الجهمة سببا في موت الحب بالنسبة لصلاح عبد الصبور، وما موت الحب عنده إلا لأن الشاعر فقد القدرة عليه ، فحزنه المقيم إن يكن قد هبط إلى الأعماق حين رانت عليه

أنفاس الحب البكر، لقد عاد هذا الحزن ينقر في قلبه بعد أن استنفذت تجربة الحب أثرها، بل ربما عاد الحزن في هذه المرة مضاعفا بعد أن أضيف إليه الحزن على موت الحب وفقدان القدرة عليه[15] ، حيث يقول صلاح في قصيدته رسالة الى سيدة طيبة :

أشقى ما مر بقلبي أن الأيام الجهمة
جعلته يا سيدتي قلبا جهما
سلبته موهبة الحب
وأنا لا أعرف كيف أحبك
وبأضلاعي هذا القلب [16]

وهكذا فإن المرأة عند صلاح عبد الصبور لم تعد موضوع غزل قديم وإنما استحالت إلى نظير يعيد توازن الأشياء ويبحث عن أشياء وراء حدود الأنوثة ولحظة الاشتهاء إلى البراءة والإخلاص والإنسانية والوفاء، وبذلك يبتعد الحديث عن المرأة عن ثقافة الغزل الرومانسي، كما أن الحب عند صلاح عبد الصبور أضحى وسيلة للمعرفة وتحقيقا للإنسانية والإنسان، وما» قيمة الحب الإنساني إلا واحدة من قيم كثيرة، افتقدها الشاعر الحداثي وعانى من ضياعها، في دروب الحياة الجهمة...مما يكون به الإنسان إنسانا، وعندها يتحول هذا الجذب الروحي إلى معاناة في التجربة الشعرية "[17] كما هو الحال عند الشاعر صلاح عبد الصبور الذي كان الحب عنده سببا في معاناته وحزنه ومن ثم فإن تيمة الحزن و تيمة الحب سارتا جنبا إلى جنب في شعره لتعبر عن موقف الشاعر من موضوع الحب .

الحب الإلهي :

هو من الموضوعات الاثيرة عند الشعراء الصوفيين ، إذ يعرفه ابن العربي بقوله : " هو خلوص الهوى الى القلب ن وصفاؤه من كدر العوارض ، فلا غرض لمحب ، ولا ارادة مع محبوبه ، فإذا خلص الهوى في تعلقه بسبيل الله دون سائر السبل ن وتخلص له وصفا من كدورات الشركاء في السبل ، سمي حبا لصفائه، وخلوصه .

يلمس القارئ لقصائد الشاعر وجود اسقاطات واضحة ، يتغزل فيها بالذات الإلهية ، واذ يستمد عباراته من فكر صوفي خصب ، يبرز فيه الحب ممثلا لكل القيم الجمالية في الحياة. وتتعدد أشكال هذا الحب من حب إلهي مثالي ، الى حب المتصوفة لذات الله المتفردة بالجمال ، إذ يقترب هذا الحب من الغزل العذري ، الذي يميل الى السمو والعاطفة وتغليب الروحي على الجسدي وتصوير المشاعر النبيلة ، وذلك " بالتأليف بين الحب الإلهي ، والحب الانساني ، والتعبير عن العشق في طابع الروحي ، من خلال

أساليب غزلية وموروثة ، كان قد تم تكوينها ، ونضجها الفني كما في قوله موضحا مفردات الحب الى الإله فيقول في "أغنية ولاء" :

يا أيها الحبيب
معذبي ، يا أيها الحبيب
أليس لي في مجلس السني حبوة التبيع ؟
فإني مطيع
وقادم سميع [18]

فقد عبر الشاعر عن حبه بلغة قلبية إيحائية ـ تتخطى لغة الخطاب المباشر الى خطاب روحاني ، أدخله في حالة وجد تامة ، حيث التجلي ، والصفاء الروحي.
وينطلق صلاح عبدالصبور في احزانه من فكر صوفي واضح ، يبحث عن المعرفة ن ويعكس صدمة الشاعر بالواقع ، ورغبته بالتمرد عليه ن حيث يقول معبرا عن صفاء الروح ونقائها :

الله يا وحدتي المغلقة الابواب
الله لو منحتني الصفاء
الله لو جلست في ضلالك الوارفة اللفاء
أجدل حبل الخوف والسأم
طول نهاري
أشنق فيه العالم الذي تركته ورا جداري
ثم أنام غارقا ، فلا يغوص لي ...
حُلُمْ... [19]

والحب الصادق ، والرغبة رغم الظروف السياسية والاجتماعية ، التي أمرضت الناس وكانت معوقات للحب ، ويستمر شعوره بالحب إلى ان يصل إلى حقيقة أخرى :

انا مصلوب والحب صليبي
وحملت عن الناس الاحزان
في حب إله مكذوب
لم يسلم لي من سعي الخاسر إلا الشعر
كلمات الشعر
عاشت لتهددني

لأفر إليها من صخب الأيام المضنى
إن تجف فجوة إدلال لا إذلال
أو نحن ، فيا فرحي غرد ن يا نعمة أيامي عودي[20]

يتخذ الشاعر سيرة السيد المسيح عليه السلام ليوضح دوره ، فهو مصلوب ويحمل الصليب وحامل الصليب هو حامل رسالة يؤديها الى الناس ، فالصلب رمز التضحية ، فإذا كان المسيح عليه السلام احتمل العذاب من أجل رسالة عظيمة وهي الخلاص ، فإن شاعرنا يحمل رسالة بهذا الصليب ، ويحتمل العذاب من اجل قيمة عظيمة ، وهي الحب الذاتي الذي يشعر به ، والسيد المسيح من الرموز الدينية التي اتكأ عليها صلاح عبد الصبور لإيصال رسالته الشعرية إلى الملتقى متقمصا دلالة الشخصية بأبعادها الدينية والاجتماعية وسوف يتم تحليل دور الشخصية الدينية في شعر صلاح عبد الصبور .

العشق المكاني :

يكثر في الشعر الصوفي الحنين الى الديار التي لها صلة روحية عميقة كما هو عند متقدمي الصوفية أمثال : الحلاج وابن الفارض وابن العربي ، اذ ارتبطت أشعارهم بتللك الديار دينيا ووجدانيا ويذكرونها بكل خشوع ، وفي شعر صلاح عبد الصبور نلمس ما يشبه أثر هذه العلاقة الحميمة التي يبعثها المكان في نفوس ساكنيه فنجده دائم التعلق به لا يكاد يفارقه يبادله الحب بالحبب مما جعل هذا الشعر مصدر راحة عاطفية لعبد الصبور في قصيدته "أغنية للقاهرة " التي قال فيها :

لقاك يا مدينتي حجتي ومبكيا.
لقاك يا مدينتي آسيا.
وحين رأيت من خلال الظلمة المطار.
نورك يا مدينتي عرفت أنني غللت .
الى الشوارع المسفلتة.
خضرة أيامي .
وأن ما قدر لي يا جرحي النامي .
لقاك كلما اغتربت عنك .
بروحي الظامي .[21]

نجده يحاور مدينته التي أضنته وانهكته ، ولكنه بالرغم من كل ما صنعت به متعلق بها ومنجذب إليها . فقد أصبحت القاهرة قدر الشاعر الذي لا يقهره ، وهو لا يملك إزاء هذا القدر إلا الاستسلام ، ففي جدله مع المدينة ، يقول :

أن أذوب آخر الزمان فيك
وان يضم النيل والجزائر التي تشقه
والزيت والأوشاب والحجر
عظامي المفتتة
على الشوارع المسفلتة
على ذرى الأحياء والسكك
حين يلم شملها تابوتي المنحوت من جميز مصر[22]

فالشاعر لم يوظف المكان الذي لا فعل له ، بل جاء بمعنى روحي كثيف يزخر بأناس العشاق مما جعله يتعلق به تعلقا ذاتيا ينطلق من حالة توحد صوفي ، لذلك يعد المكان أحد مفاتيح الكشف المهمة عند الصوفية فهو ذو قيمة روحية إذ استطاع الشاعر بهذا المعنى العشقي أن ينقل المكان من بعده العقلي الى مكان روحي يلائم سعيه وحاله ومقامه.

وخليق بنا القول إن الحب العذري هو لون من العشق يحب فيه العاشقون حُباً حالماً يلتزمون فيه العفة والطهارة طابعاً في حبهم، وأفنوا العمر مُقتصرين على محبوبة واحدة واستعذبوا كل مشقة وصعب، وتحملوا صنوف العذاب في سبيل هذا العشق، حيث تحوّل قيود تقليديّة متوارثة دون الزواج بمن يحب. والحب الإلهي أخص خصائص التصوف الإسلامي ولا يصله المريد إلاّ بعد تمام نفسه ، و في الغزل الصوفي يستعير الصوفي لغة العذريين فينشدون شعرهم ويتمثلونه وينشئون على منواله، فما أشد القرب بين اللونيين، وما أدق الفوارق بينهما، ويتميز الشعر الصوفي فوق ذلك كله بأنه تعبير عن وجدان الشاعر وعن ذاته وأعماق نفسه، فهو أدب وجداني خالص، وهو مذهب رومانسي حالم، وهو إشراقي النزعة ، روحي الهوى . فشاعرنا عبدالصبور يعتبر الحب ملجا امن ومطمئن ويلوذ بالعشق من المصاعب والمشكلات ويعتبره سبب الحياة ويؤمن بان الانسان لا يحي الا بالحب.

الإحالات والهوامش:

[1]- صلاح عبد الصبور ، **حياتي في الشعر** ، دار العودة ، بيروت ، 1969. ص:08

[2]- صلاح عبد الصبور ، **الديوان** ، دار العودة ، بيروت ، ط1، 1972 ،ص:261

[3]- صلاح عبد الصبور ، **الديوان** ، مرجع سبق ذكره ، ص: 469

[4]- نفس المرجع السابق ،ص : 101

[5]- علي عشرى زايد، **استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر** ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1997 ،ص :85

[6]- صلاح عبد الصبور ، **حياتي في الشعر** ، مرجع سبق ذكره ، ص ص217 -219

[7]- ادونيس ، **الصوفية والسوريالية** ، دار الساقي. بيروت. .ط3 ،1992،ص:104

[8]- أبو الوفا التفتازاني ،**مدخل الى التصوف الاسلامي** ،دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط3 ، 1979،ص:86

[9]- عاطف جودة نصر ، **الرمز الشعري عند الصوفية** ،دار الاندلس ، بيروت ،1983 ، ط 3 ،ص: 124

[10]- صلاح عبد الصبور ، **الديوان**، مرجع سبق ذكره ، ص : 158

[11]- نفس المرجع السابق ، ص : 211

[12]- نفس المرجع السابق ، ص: 42

[13]- نفس المرجع السابق ، ص ص: 208-209

[14]- نفس المرجع السابق ، ص ص : 125

[15]- عز الدين إسماعيل، **الشعر العربي المعاصر،قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية**، المكتبة لأكاديمية، ط 5،1994 ،ص319

[16]- صلاح عبد الصبور، **الأعمال الكاملة، قصيدة رسالة إلى سيدة طيبة**، ص225

[17]- فاروق عبد الحكيم دربالة، **الموضوع الشعري**،ايتراك للنشر والتوزيع ، ط1،.2005ص104

[18]- صلاح عبد الصبور ، **الديوان**، مرجع سبق ذكره ، ص : 96

[19]- صلاح عبد الصبور ، **الديوان**، مرجع سبق ذكره ، ص : 205

[20]- صلاح عبد الصبور ، **الديوان**، مرجع سبق ذكره ، ص : 124

[21]- صلاح عبد الصبور ، **الديوان**، مرجع سبق ذكره ، ص : 197

[22]- صلاح عبد الصبور ، **الديوان**، مرجع سبق ذكره ، ص : 198